البعد السيكولوجي في الخطاب الأدبي الساخر

The Psychological Dimension of Satirical Literary Discourse.

د. قردان الميلود[1] * / pr.kardain miloud[1]
د. فتوح محمود[2] / pr.fettouh mahmoud[2]
جامعة أحمد بن يحيي الونشريسي تيسمسيلت (الجزائر)،
University of Tissemsilt (Algeria)
mouloudradwane@hotmail.com[1] mahmoud.fettouh@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2021/06/30	تاريخ القبول: 2021/07/21	تاريخ النشر : 2022/03/02

مُلَخَّصُ البَحْث

يعرّف برغسون السّخرية في كتابه " الضحك" بقوله:"الإنسان حيوان ساخر"، لأن السّخرية جماع النطق والضّحك والعقل، ولأنّ فضاء السّخرية واسع ومتنوّع، فهي تولد في البيوت العادية عند الشّحّاذين والفقراء، كما تولد في القصور الفخمة بين الكبراء والأمراء، مثلما تشبّ في الشّوارع وأماكن العمل وفي المجالس العامّة والخاصّة، فهي مرآة للواقع لا تجمّل ولا تجامل، تظهر الحياة كما هي، دون مساحيق وجه ولا أحمر شفاه. لا شكّ أن للسّاخر أسبابا ودوافع تجعله يقدم على إشهار سيف السّخرية في وجه الآخرين، وتختلف هذه الأسباب والدّوافع باختلاف الشّخص السّاخر، ونفسيته والعوامل الاجتماعية المحيطة به، وهي في الحقيقة تخفي منطقة ظل في نفسية الإنسان الساخر، يصطلح عليه بالجانب السيكولوجي للخطاب الساخر.

الكلمات المفتاح : السخرية، الخطاب الأدبي، السيكولوجيا، الضحك، النقد.

Abstract :

In his book "Laughter",Bergson defines satire by saying: "Man is a cynical animal". And because the space of irony is wide and diverse, so it is born in ordinary homes among the beggars and the poor, and in the lavish palaces between the great and the princes,as it appears in the streets, workplaces, and public and private assemblies, so it is a mirror of reality that does not beautify or compliment, it showslife as it is, with no makeup and no lipstick, and Undoubtedly, the satirist has reasons and motives that make him use the sword of satire in the face of others, These reasons and motives differ according to the sarcastic person, his psyche, and the social factors surrounding him, and in fact they hide a psychological shadow area in the first place, or termed as the psychological aspect of sarcastic discourse.

Keywords: satire, literary discourse, psychology, laughter, criticism.

---

* د. قردان الميلود: mouloudradwane@hotmail.com

مقدمة:

مما لا شكّ أن للسّاخر أسبابا ودوافع تجعله يقدم على إشهار سيف السّخرية في وجه الآخرين، وتختلف هذه الأسباب والدّوافع باختلاف الشّخص السّاخر ونفسيته والعوامل الاجتماعية المحيطة به.

من أجل هذا نحاول في هذه الورقة البحثية الإجابة على جملة من الأسئلة أهمها: هل يمكن اعتبار الخطاب الساخر يعكس نفسية مريضة غير سوية ؟ وما هي الأسباب السيكولوجية الكامنة وراء ذلك ؟ أليس المجتمع هو من أنتج هذا الخطاب الساخر عن طريق ثقافة الإقصاء وتهميش الإنسان ؟ ألا يمكن اعتبار الخطاب الساخر وسيلة دفاعية في معركة الحياة ؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة ارتأينا أنه من الضروري –منهجيا- الإشارة إلى بعض المفاهيم التي تتعلق بموضوع السخرية من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية.

أولا: السخرية الدلالة والمفهوم:

أ/ لغة:

لو فتّشنا عن مدلول السّخرية في المعاجم اللغوية، لوجدناها تدلّ على معان متقاربة، تدور في مجملها حول معنى الاستهزاء، والضّحك، والتّهكّم، والتّندّر، والتّذليل والطاعة والانصياع.

فقد جاءت مادّة (سخر) في معجم العين دالّة على الاستهزاء والضّحك، فقولك:" سَخِرَ منه وبه. أي استهزأ، والسّخرية مصدر في المعنيين جميعا، وهو السُّخريّ أيضا، ويكون نعتا كقولك: هم لك سِخْريٌّ وسُخريَّة، مذكّر ومؤّنث (من ذكّر قال: سُخريٌّ، ومن أنّث قال: سخريّة) والسُّخرةُ: الضّحكة"[1].

وجاء في أساس البلاغة للزّمخشري "سَخِر، فلانٌ سخرةٌ وسُخَرَة: يضحك منه الناس ويضحك منهم، وسَخِرت منه واستسخرت، واتخذوه سُخريّا، وهو مسخرة من المساخر. وتقول: ربّ مساخر يعدُّها الناس مفاخر. وسخّرَه الله لك، وهؤلاء سُخرَةٌ للسّلطان يتسخّرهم: يستعملهم بغير أجر"[2]، ونجد صاحب اللّسان في مادة (سخر) يقول:"سَخِرَ منه و به سَخْرا، وسَخَرا ومَسْخَرا وسُخْرا بالضم، وسُخْرة و سِخْريّا وسُخْريّا وسُخْريّة: هزئ به، ويروى بيت أعشى باهلة على وجهين.

إنّي أتتني لسانٌ، لا أُسرُّ بها   من عَلْوَ، لا عجب منها ولا سُخرُ.

ويروى: ولا سَخَرُ، قال ذلك لما بلغه خبر مقتل أخيه المنتشر.

وقال الأخفش: سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه، وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به،كل يقال، والاسم السّخرية والسُّخريّ والسَّخريّ.

وقوله تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾[3]، أي يسخرون ويستهزئون، كما تقول عجب، وتعجب واستعجب بمعنى واحد.

والسُّخرة الضّحكة، ورجل سُخرَة: يسخر بالناس. وسَخَّره تسخيرا:كلّفه عملا بلا أجرة، وكذلك تسخّره . وسخّره يسخّره سِخريا وسُخريا، وسخّره: كلّفه ما لا يريد وقهره. وكل مقهور مُدبَّر لا يملك لنفسه ما يخلّصه من القهر، فذلك مسخّر. وتسخّرت دابّة لفلان أي ركبتها بغير أجر"[4].

أمّا صاحب القاموس المحيط فلم يختلف كثيرا عن صاحب اللسان في مفهوم السّخرية، وهذا ما نقف عليه في هذه المادة، يقول"سخر منه ربه، كفرح، سخرا وسخرا وسخرة ومسخرا وسخرا وسخرا: هزئ كاستسخر.

والاسم السّخرية والسِّخري، ويكسر، وسَخَرَه كمنعه، سِخريا، بالكسر ويضم: كلفه ما لا يريد، وقهره، وهو سخرة لي وسُخريّ وسِخريّ، ورجل سُخَرَة، ك: هُمَزَة: يسخر من الناس.﴿ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾[5]، أي: إن تستجهلونا فإنّا نستجهلكم، كما تستجهلونا. وسخّره تسخيرا: كلّفه عملا بلا أجرة، كتسخّره[6].

وقد تكون بمعنى الطّاعة والانصياع:"سَخَرت السّفينة تَسْخَرُ سَخْرا، أطاعت وطابت لها الريح والمسير، فهي ساخرة، جمع: سواخر"[7].

وتكاد تتّفق المعاجم اللّغوية على معان متقاربة لكلمة "السّخرية" فهي تدور في مجملها حول الاستهزاء والتّهكّم والتّحقير والضّحك.

ب/:اصطلاحا.

من الصّعب إيجاد تعريف جامع مانع للسّخرية، فهي ظاهرة اجتماعية وبلاغية ونفسية، لأنها ترتبط في الحس المشترك بالاستهزاء والتّهكّم، وقول شيء والمراد خلافه، حيث يكون المنطوق بخلاف المفهوم، فهي فعل قائم على قلب المعاني.

وتفيد السّخرية– اصطلاحا– نسبة عيب إلى شخص، أو تفخيم عيب في شخص بغرض التهذيب و الإصلاح، ليبرأ منه، أو من بعضه، أو ليخافه إن لم يكن فيه، ولهذا فهي – فضلا عن كونها أداة للتسلية فهي وسيلة لخدمة الفرد والمجتمع، لما فيها من تهذيب وتقويم وإصلاح وتطهير، لأنها تتضمن نوعا من الزّجر أو الرّدع. إلاّ أنها أقل منه وقعا، ومع هذا فهي" تحبّب إلينا الحياة لأنها تكسوها بثوب

قشيب، وتزود النفوس والعقول والأذواق بثقافة وافرة صادرة عن عقل واع دقيق"[8]، أو هي قول شيء بقصد الإفصاح عن معنى آخر.

وهناك من عرّف السّخرية بأنها "الدّعوة إلى الثورة من غير هتافات عدائية، ومن غير تنظيمات يدان أصحابها، فكأنها تهيئ النفوس للثورة على الظلم وعلى الانحراف، وتفتح العيون على النقائص التي يحاول أصحابها أن يبعدوها عن مواطن الضوء"[9].

أمّا الأديب عبّاس محمود العقاد، فقد أشار للدور الكبير الذي تؤدّيه السّخرية في تثقيف النفوس، وعدّها من العبقريات التي تكسو الحياة رونقا وجمالا بقوله:"إنها عبقرية لا تقلّ في اقتدارها على تجميل الحياة وتثقيف النفوس"[10].

كما يمكن تعريف السّخرية على أنها "النقد الضاحك أو التجريح الهازئ"[11]، أمّا هنري برغسون فيرى أن السّخرية هي جماع العقل والنطق والضّحك بقوله:"الإنسان حيوان ساخر، لأن السّخرية جماع النطق والضّحك والعقل"[12].

ثانيا: أسباب ودوافع السّخرية.

إنّ فضاء السّخرية فضاء واسع ومتنوّع، فهي تولد في البيوت العادية عند الشّحّاذين والفقراء، كما تولد في القصور الفخمة بين الكبراء والأمراء، مثلما تشبّ في الشّوارع وأماكن العمل وفي المجالس العامّة والخاصّة، فهي مرآة للواقع لا تجمّل ولا تجامل، تظهر الحياة كما هي، دون مساحيق وجه ولا أحمر شفاه.

ليس هناك تاريخ أو شهادة ميلاد للسّخرية، فعندما ارتفع السوط الأول في وجه الإنسان (السوط السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الديني)، وُلدت السّخرية ووُلدت المقاومة بالضّحك. والسّخرية مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية فهي لا تقال للإضحاك فقط، وإنما للتّلميح إلى مكبوتات وسلبيات لا يستطيع السّاخر الإفصاح عنها بشكل مباشر، فهي بمثابة الكابح الاجتماعي، تردّ الذي أُخرج بغفلته، أو لِعيب من عيوبه إلى أحضان المجتمع، فهي نوع من التأديب، ذلك أننا لما نسخر من إنسان ما، فكأنما ننزله من مرتبته ونخرجه من دائرتنا، لذلك يحاول أن يرتفع و يستردّ مكانته الاجتماعية، فيبادر إلى إصلاح العيب الذي فيه. فتصبح السّخرية بذلك سلاحا ماضيا، تفتك بالخصوم، وتحطّ من شأنهم وتخفض من قدرهم، ولو كانوا في المراتب العليا.

فالسّخرية من أعرق أسلحة البشر وألطفها، فهي سلاح الضعيف ضد القوي، وسلاح الفقير على الغني الجشع، وسلاح المظلوم على الظالم، فهي سلاح ذاتي يستخدمه الفرد للدفاع عن جبهته

الداخلية. وإن كانت السّخرية في ظاهرها مضحكة؛ فهي تخفي أنهارا من الدموع، وجبالا من الهموم، فالضّحك الذي تخلّفه في نفس المتلقي، هو في الواقع بكاء نابع من نفس السّاخر. وإذا:" دلّت الفكاهة في بعض الأحيان على جذل، و ابتهاج، ونجاح، أو انتصار، فهي في بعض الأحيان الأخرى تنمّ على أ لم دفين، وتشفّ عن كرب خفي، ويريد من يلجأ إليها أن يداوي ألمه بالضد، ويشفي كربه بالنقيض، كما يداوى البرد بالتدفئة، ويعالج التعب بالراحة والاستجمام، وهلم جرّا، ضِدُّ الأ لم هنا هذا الضّحك الهازل المتفكّه، الذي يمسّ الأشياء والحوادث من خارج، دون اكتراث ولا مبالاة، فهو لا يكاد يحفل بها ويهتم بمغبّاتها[13].

يذهب فريق من علماء النفس إلى اعتبار السّاخر شخصا مريضا نفسيا، يعاني من عقد نفسية قد تكون لازمته منذ مرحلة الطفولة المبكرة، أو مرحلة النضج، فالسّاخر في نظرهم هو ذلك الإنسان المتعالي بنفسه المتكبر على المجتمع، هذا المجتمع الذي يكون قد لفظه، فأضحى مجرّد هامش وحاشية على متن نصّ، مما ولّد في نفسه حقدا، وكرها، على هذا المجتمع الذي هضم حقّه، وحطّ من قيمته، والمجتمع ما هو إلا مجوعة أفراد في نهاية المطاف، فيصبّ جام غضبه، وحقده على أفراده بالسّخرية منهم جميعا، أو بأحدهم، ليعوّض عن ذلك الحرمان، والتهميش، والإقصاء، الذي مارسه المجتمع ضدّه.

وها هو إمام السّاخرين وشيخ المتهكمين "الجاحظ" يقرر هذه الحقيقة بقوله:"لا يتزيد أحد إلا لنقص فيه،.فالإنسان السّاخر لا يرتاح، ولا يهنأ له بال، حتى يغيظ الآخرين ويتشفى فيهم، فهو لا يشعر باللذة إلا حينما يرى الآخرين يتألّمون، وتتضاعف نشوته إذا كان هو مصدر ذاك الأ لم، كما هو الشّأن بالنسبة للشاعر المخضرم (الحطيئة) الذي لم يسلم أحد من سلاطة لسانه، بل حتى نفسه نالت نصيبا من ذلك الهجاء المقذع، لأنه كان مغموزا في أصله وكان محروم الميراث.

أمّا برنارد شو الأديب الإرلندي السّاخر، فقد نشأ في بيئة اجتماعية منحلّة، إذ كان أبوه مدمنا للخمر، أمّا أمّه فقد هجرت بيت الزوجية لتتزوج بمعلِّم موسيقى، ولم تكن تلق بالا لمهام البيت وشؤون الزوجية، فكان "شو" إذا ما حلّت به محنة، أو أصابته كارثة، رفّه عن نفسه بالضّحك والسّخرية.

ومن أبرز العوامل التي يقرّرها علماء النفس ويرون أنها الدافع الأساس للضّحك بصفة عامة، هو محاولة تخفيف الأ لم الذي يتعرّض له الناس في حياتهم المليئة بالهموم والآلام والأحزان.

فالسّخرية أوسع أبواب الفكاهة والضّحك، فهي ظاهرة صادرة عن النّفس البشرية المتناقضة، التي سرعان ما تملّ من حياة الجدّ والانضباط والصّرامة، فتجد ضالتها في الترويح عن النفس والبحث عن

الفكاهة والهزل، والتنفيس عن الآلام والخروج من حياة الضجر، ولو لدقائق معدودة. ولما كان الإنسان أعمق الموجودات ألما، فقد كان لا بد له من أن يخترع الضّحك.

ولا تقف السّخرية عند مجرّد وظيفة التطهير والتنفيس، بل تتعدّى الإطار الفردي إلى الإطار الجماعي، وإلاّ تحوّل السّاخر إلى مجرد فرد أناني، لا يهمّه سوى تفريغ شحنات الغضب، والسخط ضد المجتمع والأفراد الذين لا يوافقون مزاجه، حتى يشعر باللّذة والنّشوة.

والواقع أن هدف السّخرية الخفي هو النقد والإصلاح الاجتماعي، لاسيما وأنّها أثبتت نجاعتها، فكم زلزلت من سلوكيات مشينة، وكم من عادات سيئة هدّت أركانها من الأساس، وتزداد الحاجة لسلاح السّخرية في غياب نصوص قانونية تجرّم بعض السلوكيات المنحرفة، فالبخل – مثلا– لا يوجد نص قانوني يعاقب عليه، لكنه سلوك مستهجن ومرفوض من المجتمع، ومن هنا فالسّخرية هي العلاج المفيد لمثل هذا الخُلُق الذميم، في غياب العقاب المادي، وذلك بتحقيره وتصغيره في عين المجتمع وميزان الفضيلة.

فالسّخرية محاولة لطيفة مهذبة، الغرض منها تطهير الحياة والمجتمع من الظواهر السلبية التي تجانب الصواب، وتعيق التطور وتحرّض على الجمود.

وقد يكون الدافع إلى السّخرية، السّخط الذي ينتاب السّاخر، من تعقّد الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ومن سيطرة المال في قضاء الحاجات، وإلى هذا يشير العالم اللغوي أحمد بن فارس صاحب كتاب"مقاييس اللغة"، قائلا[14]:

إذا كُنتَ في حاجةٍ مرسلاً   وأَنتَ بها كَلِفٌ مغرم
فأَرْسِلْ حكيما ولا توصِهِ   وذاكَ الحكيمُ هو الدّرهمُ

ويواصل– أحمد بن فارس– التعبير عن سخطه وتبرّمه من الحال التي صار إليها العلماء والأدباء، من كفاف وشظف عيش، في الوقت الذي كان الجهلاء يعيشون حياة البذخ والنعيم والترف.

لذلك نجده يصرف أحد الفتيان الذي جاء يستشيره في طلب العلم والأدب، ليتخذ منهما صنعة يكسب بها رزقه، فأكّد له أن مصير العلماء والمتأدّبين الفاقة والفقر، وعبّر له عن ذلك بقوله ساخرا:

وصاحب لي أتاني يستشيرُ وقدْ   أرادَ في جنبَات الأرضِ مضطَربَا
قلت اطّلِب أي شيء شِئْتَ واسْعَ   ورِدْ منه الموارد إلاّ العلمَ و الأدَبَا[15]

فالسّاخر إنسان محبّ للكون، مقدر لمعنى الحياة، يسعى للحفاظ على مقوّمات المجتمع ومبادئه، يلبّي ذلك النّداء الأزلي الصّادر من أعماق نفسه ووجدانه، ليناصر كل ما هو صالح وجميل، وصادق وبنّاء.

وقد يسخر الإنسان حتى من نفسه، وذلك عندما يشعر بأنّ المجتمع منبّه لعيب أو عيوب فيه، فيبادر للسّخرية بنفسه من نفسه، قبل أن يصبح هدفا لغيره، وهذا على وفق المثل العربي القائل"بيدي لا بيد عمرو"و في هذه الحالة نكون أمام ما يسمى بنقد الذات، وقد يكون الدافع إلى السّخرية "الانتقادية" تصليح العيوب التي يعاني منها المجتمع، وتنبيه الغافلين لخطورة السكوت عن المظاهر السلبية، التي تتحوّل بمرور الوقت لتصبح في حكم المعتاد، وهو أمر في غاية الخطورة، فالسّاخر فنّان قبل كل شيء، يتحسّس نقائص المجتمع وعيوبه، فيضعها تحت مباضع التشريح، ويتناولها بأساليب ساخرة، فيضفي عليها مسحة من الدّعابة الهادفة، بقصد الإصلاح والتقويم وهو في ذلك كله يحاول أن يجعل من يتناوله بالسّخرية متلائما مع المجتمع وسيرورته، منسجما مع بني جنسه.

وهناك من يرجع السّخرية إلى الغرور والعجب، اللذين يصيبان الإنسان السّاخر، فيصبح لا يرى المجتمع إلا من أعلى برجه العاجي، يقول العقاد:"العبث والغرور بابان من أبواب السخر، بل هما جماع أبوابه كافّة"[16].

كما قد يكون الدافع إلى السّخرية التكوين النفسي للسّاخر، الذي تنازعه نفسان: الأولى خيّرة، والثانية شرّيرة، فإذا ما كانت الغلبة للنفس الشريرة، يكون للسّاخر حينئذ استعداد مزاجي للسّخرية، فهو مهيّئ للتعريض بالغير والسّخرية من الناس، مع انتفاء دافع شخصي معيّن يدفعه لذلك. ومن ذلك ما أورده صاحب العقد الفريد من أبيات شعرية، يسخر فيها الشاعر من بخل رجل اسمه "أبو نوح"[17].

يقول الشّاعر:

أبُو نوحٍ أتيتُ إليهِ يومًا   فغدّاني برائحةِ الطّعامِ
وجاء بلحم لاشيء سمينٍ   فقدّمه على طبق الكَلامِ
فلمّا أن رفعتُ يدي سقاني   كُؤوسا حشوها ريحُ المدامِ
فكنتُ كمنْ سقَى الظّمآن آلاً   وكنتُ كمنْ تغدّى في المنامِ

فالشّاعر هنا يريد تقويم سلوك أبي نوح هذا، الذي يبدو أنّه أفرط في البخل، فلا وجود لمائدته الدّسمة بالكلام، والريح، إلاّ في المنام.

ولا يقصد بالسّخرية التسلية وتمضية الوقت، وإلاّ كانت مجرّد عبث ولهو، وإنّما السّخرية رسالة قبل أن تكون تسلية عن النفس والخاطر.

وقد يغيب عن ذهن الكثير من الناس أنّ الدافع للسّخرية في كثير من الأحيان، هو عدم جدوى الأسلحة الأخرى في مواجهة بعض العيوب والمظاهر، والتي تكون في حماية السلطان، ومن بيده الأمر والنهي، وقد يتعرض ناقدها إلى ألوان شتّى من العقاب.لكن من الخطأ أن تترك دون مقاومة، حتى لا يستفحل أمرها، وتهدّد كيان المجتمع وأعرافه، فالاستبداد بالحكم وظلم الرّعية خُلُق مناف للعدالة الإنسانية، وهذا ما يسمّيه جابر عصفور ب "سخرية المقموع"، وفي ذلك يقول: "فالسّخرية استراتجية خطاب مقموع، يخاطب به المقموع قامعه، وينزع عنه براثنه، وذلك على نحو يخلع عن القامع أقنعته المخيفة، ويحيله إلى كائن يمكن مقاومته، والانتصار على أدوات قمعه التي تتحطم مع بسمة السّخرية الماكرة"[18].

وتوظّف السّخرية الحيلة والمكر والاختفاء وراء الألفاظ، لتقريع الخصم، دون أن تترك دليلا ماديا يدينها، يقول جابر عصفور: "فالسّخرية يمكن أن تكون في مواجهة الحاكم ،ولكن من خلال حيل ، وأنواع بلاغية ماكرة من التّقية، يمكن أن تقول كل شيء، على الرغم من أنها تبدو ببراءتها الطاهرة كما لو كانت لا تقول أي شيء يغضب الحاكم، يوقع السّاخر في براثن الحاكم"[19].

ثالثا: صور وأساليب السخرية:

نحاول في هذا المبحث تتبع أساليب السّخرية وصورها، مع أنّنا نقرّ بعجزنا مسبقا على حصر كلّ الأساليب والصّور التي ترتديها السّخرية، وذلك لتشابكها، وتداخلها، واختلافها، باختلاف الثقافات والمجتمعات.

ولعلّ أقدم صورة من صور السّخرية هي"السّخرية بالمحاكاة"، سواء كانت المحاكاة في طريقة الكلام، أو المشي، أو الحركات الجسمية، وأنواع السلوك المختلفة، أيّ في السّمات البارزة التي تميّز شخصية ما من الشخصيات،كأسلوب من أساليب الكتابة، التي يمتاز بها كاتب من الكتّاب، أو خطيب من الخطباء، أو شاعر من الشّعراء [20].

فالسّاخر المقلِّد، إنما ينقل شخصية المقلَّد، ويعبث ويتماجن بها، فيمسخها مسخا، وهو لا ينقل لنا صورة طبق الأصل، وإنما يُضيف لهذه الصورة لمساته الفنية، التي تجعل هذه الشخصية كأنها ولدت من جديد.

وتعدّ "المناداة بالألقاب" من أقدم صور السّخرية كذلك، وهي من الصّور السهلة والسّاذجة، وقد تستعمل فيها أسماء الحيوانات كألقاب للمناداة، مما يجعل من الصورة مغرقة في الضّحك،كقولنا للبدين "يا دبّ" أو "يا كركدن"، ثم يجري هذا اللقب مجرى العادة، فلا تعرف هذه الشخصية إلا بهذا

اللقب، وليس كلّ شبه للحيوان بالإنسان أو العكس مضحكا، فقد يكون موحيا بالرّقة كالظبي، وبالروعة كالأسد. ويدخل في صورة السّخرية بالألقاب استعمال ألفاظ أجنبية للمناداة، ومن ذلك مناداة العجوز الشمطاء الطاعنة في السن بلقب "مادموزيل".

كما أنّ السّخرية بتقليد الصوت، وذلك برفعه آو بخفضه، وإعطائه نبرات خاصة معروفة، يفهمها السامع عادة، تعدّ من أكثر صور السّخرية شيوعا، كما هو الشأن بالنسبة للسّخرية بالحركات الجسمية، كانفراج أسارير الوجه، وتحريك عضلاته، أو بهزّ الرأس، أو الغمز بالعين، أو تشبيك الأصابع، أو هزّ الكتفين.

وقد سجّل لنا تراثنا العربي الأصيل، نماذج راقية من أساليب السّخرية اللاّذعة، التي ليست في متناول الجميع، ويلزم من يريد امتطاء صهوتها، وامتلاك ناصيتها، ذكاءً لماحا، وبديهة سريعة وحاضرة.

وتعدّ الغفلة والتّغافل، وتجاهل العارف، والتّخلّص الفكه، والرّدّ بالمثل، والقلب والعكس، والتّهكّم بالعيوب الخَلقية والخُلُقية، من أساليب السّخرية التي حفظتها لنا كتب التّراث والبلاغة العربية، وسنحاول في هذا المبحث التّعرّض لبعض من هذه الأساليب، مدّعمة بشواهد وأمثلة من التّراث، يأتي في مقدمتها التّهكّم بالعيوب النفسية والخُلُقيّة.

التّهكّم والسّخرية بالعيوب النّفسية والخلقية من صور وأساليب السّخرية قديما وحديثا، ذلك أنها في مجملها مثيرة للضّحك، كيف لا تكون كذلك، وهي لا تساير المثل العليا للمجتمع، والأخلاق الفاضلة، التي تسمو بروح الإنسان إلى العلياء.

ومن هذه العيوب التي هاجمها السّاخرون وجعلوا منها مادّة دسمة لسخريتهم وتندّرهم، البخل، والجبن، والجشع، والغرور، وهي عيوب عديدة ليس بالإمكان حصرها أو تصنيفها.

ومن صورة التّهكّم والسّخرية بالبخل، ما قاله أبو نواس في رجل مَسِيك[21] :

رأيتُ الفضلَ مُكتئِبا   يُناغِي الخبزَ والسمكَا
فقَطَّبَ حين أبصرني   ونكّسَ رأسَه وبَكَى
فلمَّا أنْ حلفت له   بأنّــي صائمُ ضَحِكا[22]

وقد أفرد الجاحظ كتابا أسماه البخلاء، صوّر فيه أحوالهم، ونوادرهم، وحرصهم الشّديد على جمع المال، وصيانة عرضه.

ومن أمثلة السّخرية من الغباء والبلادة، أنّه دخل رجل يوما على الشّعبي، وامرأته معه في البيت، فقال: أيّكما الشعبي؟ قال الشعبي: هذه وأشار إلى امرأته[23]، سخر الشعبي من غباء الرجل، الذي جعله لا يفرق بين الرجل والمرأة.

ولعل أشدّ أنواع السّخرية إثارة للضّحك، تلك التي يتهكم فيها السّاخر من نفسه، ويتندّر بعيوبه الجسدية والنّفسية، فيكون الباعث هنا على الضّحك مضاعفا، فالشّخص الذي يتندر بنفسه، شخص فكه ظريف، خفيف الروح. وقد يكون الباعث لذلك هو وقاية نفسه من تهكّم الآخرين والسّخرية به، وقد يكون ذلك بدافع التّنفيس عن الهموم، التي تنغّص على الإنسان حياته، فهي:" ضرب من التّعالي على كوارث الدّهر ومفارقاته"[24].

فالمتهكّم من نفسه، السّاخر بها، يعمد إلى تصوير نفسه في موقف محرج مثلا، أو ضعف وحيرة، فتثير هذه السّخرية من المتهكّم بنفسه مشاعر الرّحمة والإشفاق، لكن سرعان ما تزول هذه المشاعر، بنظرة دقيقة متفحّصة من المتلقّي، فتنتابه موجة جارفة من الضّحك.

ومن صور سخرية الشّخص بنفسه، ما حدث لأبي دلامة الشّاعر الفكه، ذلك أنّ أبا دلامة دخل على المهدي، وعنده جماعة من الأشراف، ومن بني هاشم، والوزير محمد بن الجهم، فقال المهدي لأبي دلامة: والله لا تبرح مكانك حتى تهجو واحدا ممّن هنا، وإلاّ قطعت لسانك، أو ضربت عنقك، فنظر إليه القوم، وكلما نظر إلى واحد منهم غمزه بأن عليّ رضاك. قال أبو دلامة: فعلمت أني وقعت، ولم أرَ أحدا أحق بالهجاء مني، ولا أَدْعى إلى السّلامة من هجاء نفسي، فقلت[25]:

ألاَ أبلِغ لديكَ أبا دُلامةْ — فليسَ من الكرامِ ولا كرامَةْ
إذا لبس العمامة كان قردًا — وخنزيرًا إذا نزعَ العَمامَة
وإن لبِسَ العَمامَة كان فِيها — كثور لا تُفَارقه الكَمامَة
جمعت دمامة وجمعت لؤْما — كذاك اللؤم تتبعه الدمامَة
فإن تكُ قد أصبتَ نعيمَ دنيا — فلا تفرَحْ فقد دَنَت القيامة[26]

فضحك القوم ولم يبق أحد إلاّ أجازه.

هذا ولم تقتصر السّخرية على نقد عيوب الأفراد والتّهكّم بهم، بل تعدّت ذلك إلى نقد المجتمع برمّته، وهذا ما يسمى بالتّهكّم الاجتماعي، فالسّخرية الاجتماعية وسيلة يُنفّس بها المتهكّم عن نفسه، بعض ما يحمل من أثقال المجتمع، وهي ذات وظيفة اجتماعية نقدية إصلاحية، تسعى إلى تقويم أخطاء المجتمع وما فيه من انحراف عن السّلوك السّليم، لاسيما أنّ هناك من العيوب ما لا سبيل إلى إصلاحه إلاّ بالسّخرية منه، وتحقيره، والحطّ من قيمته، سيما إذا علمنا أنّ هذه السلوكيات مرفوضة من المجتمع، ولكن لا وجود لنصّ قانوني يعاقب عليها. فهذه العيوب نوع من التّصلّب، والجمود الفكري، والانحراف الخلقي، فلا علاج لها إلا سفود السخرية.

وينبغي لمن يشهر سلاح السّخرية والتّهكّم لمعالجة أدواء المجتمع، أن يكون على دراية، وعلم بأحوال هذا المجتمع، ومعرفة بعاداته، وتقاليده، وذوقه العام.

ومن أمثلة السّخرية والتّهكّم الاجتماعي، ما أشار إليه حسن البدري الحجازي المتوَفَّ (1142هـ، 1729م) من سخريته بطائفة الكسالى من عامّة الناس، الذين ادّعوا المشيخة، والقطبية باسم التّصوّف الإسلامي، وهم أبعد منه بعد المشرق عن المغرب، وظّفوا التصوف وسيلة، وخدعة، اتّخذوها لأخذ أموال النّاس بالباطل، والرّكون إلى حياة الكسل والخمول، يقول[27]:

متى سمِعَ الناسُ في دينِهم بأنّ الــغـــنا سنُّـة تُـــتَّبـع؟
وأنْ يأكلَ المرء أكْلَ البعيرِ ويرقُصُ في المجمعِ حتَّى يقَع
ولو كان طاوي الحشَا جائعًا لما زادَ مــن طــربٍ واستمَع
وقالُوا سكِرنا بحبِّ الإلَه ومـــا أسكرَ القــومَ إلا القِصَع
كذاكَ الحميرُ إذَا أخصبَت تنهـــق مـــن ريّـــها والشّبَع

وكانت السّخرية بالمرصاد لحكّام الجور، وأمراء السّوء، محاولة منها إصلاح نظام الحكم الفاسد، أو التنفيس من الكبت المفروض على الرّعيّة. بخاصة إذا استيأس النّاس من تغيّر الأحوال، وبقيت دار لقمان على حالها، فالسّياسة نفسها، والوجوه نفسها، لا تبرح مكانها إلاّ لتعود إليه من جديد. وهذا ما حصل مع ابن مقلة الذي تولّى الوزارة مرّات في عهود المقتدر بالله، والظّاهر بالله، والراضي بالله، ابتداء من سنة 316هـ إلى 328هـ، وكان يكرم ويعظم نفوذه، ثم يعزل، وفي عهد الرّاضي حُبس وطُرد وقُطعت يمينه، ثم عاد إلى الوزارة، وحسِب النّاس أنه لن يعزل هذه المرة، فقال بعضهم[28]:

وقالوا العزلُ للوزراء حيضٌ لحــاهُ الله من أمرٍ بَغيـضِ
ولكـــنَّ الـــوزيرَ أبَــا عليٍّ من اللاّئي يئِسنَ مِنَ المحيضِ.

وفي العصر الحاضر يعدّ **أحمد مطر**، أميرَ السّخرية السّياسية، التي جسّدها في شكل لافتات، لا تتعدّى عشرة أسطر في بعض الأحيان، يهاجم فيها تخاذل الحكّام العرب عن نصرة فلسطين الجريحة، وانشغالهم بالملذّات، والشّهوات، وقهر الشعوب، فأصبح لسان الحال، يقول ما أشبه اليوم بالبارحة، وكأننا نعيش عصر ملوك الطّوائف، ففي لافتة عنوانها"**الحلّ**" يقول فيها:

أنا لو كنت رئيسا عربيا
لحللت المشكلة
وأرحت الشّعب ممّا أثقله
أنا لو كنت رئيسا

لدعوت الرّؤساء

ولألقيت خطابا موجزا

عمّا يعاني شعبنا منه

وعن سرّ العَناء

ولقاطعت جميع الأسئلة

وقرأت البسملة

وعليهم وعلى نفسي قذفت القنبلة[29].

ختاما نقول إننا حاولنا من خلال هذه المقاربة السيكولوجية، تسليط الضوء على منطقة الظل، أي الجانب السيكولوجي في الخطاب الساحر، ومثّلنا بأشهر أساليب السّخرية، مع إقرارنا بالعجز عن إحصائها وحصرها كلّها، فهي كالبحر العميق الزّاخر بأنواع اللّؤلؤ والمرجان، وحَسْبُنا قول برغسون عن هذا الشّيء المسمّى السّخرية:" أخشى أن يكون هذا الجوهر اللّطيف من تلك الجواهر التي سرعان ما تتحلّل إذا عرّضتها للضّوء"[30].

هوامش:

1 ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ،كتاب العين، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، (1424هـ/2004م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، مج 1، ص226.

2 ، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة،(1998)، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط1، ص 365.

3 ، سورة الصافات، الآية 14.

4 ، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، (1430هـ/1990م)، دار صادر للطباعة والنشر، ط 1 ، مج 4، ص 353/352

5 ، سورة هود، الآية 38.

6 ، مجد الدين محمد الفيروزآبادي، القاموس المحيط،(1415هـ/1995م)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ط1، ص109/108.

7 ، بطرس البستاني، قطر المحيط،(1995م)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط2، ص255.

8 ، رابح العوبي، فن السّخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب"التربيع والتدوير "و"البخلاء" و"الحيوان" (1409هـ/1989م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، ص10.

9 ، حامد عبده الهوال، السّخرية في أدب المازني(1982)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، ص35.

10 ، ساعات بين الكتب،(1388هـ/1968م)، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط4، ص153.

[11]، نعمان محمد أمين طه، السّخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري،(1398هـ/1978م)، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر،ط1،ص14.

[12]، حامد عبده الهوال، السّخرية في أدب المازني، ص 30.

[13]، عبد الكريم اليافي، دراسات فنية في الأدب العربي، (1416هـ/1996م)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، ص 414/413.

[14]، عبد الكريم اليافي،دراسات فنية في الأدب العربي، ص371.

[15]، المرجع نفسه.

[16]، عباس محمود العقاد،مطالعات في الكتب والحياة(المجموعة الكاملة)،(1403هـ/1983م) ، دار الكتاب اللبناني، بيروت– ط 01، مج 25، ص 123.

[17]، ينظر،العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربّه الأندلسي(توفي 328هـ) ، تحقيق محمد قميحة، (1404هـ،1983م)، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط01، ج07، ص209.

[18]، سخرية المقموع، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، عدد 604، ربيع الأول 1430هـ/مارس 2009م، ص 76.

[19]، المرجع نفسه، ص 76.

[20]، ينظر، نعمان محمد أمين طه، السّخرية في الأدب العربي، ص37.

[21]، مسيك أي، بخيل وفيه مساكة. ينظر، ابن السكيت يعقوب ابن اسحاق،كتاب الألفاظ، تحقيق، فخر الدين قباوة، (1998)، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط01، ص 50.

[22]، أبو نواس، الديوان، شرح علي فاعور،(1414هـ/1994م) ، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان، ط02، ص 403.

[23]، أبو محمد مسلم ابن قتيبة الدِينوري(213،276هـ)، عيون الأخبار،(1925)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، دط، ج01، ص 316.

[24]، أحمد محمد الحوفي، الفكاهة في الأدب أصولها و أنواعها، ص203.

[25]، أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، مج03، ص 44، 45.

26 ، الديوان، ص79.

[27]، نقلا عن، الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها، أحمد محمد الحوفي، ص 123.

28، نقلا، الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها، أحمد محمد الحوفي، ص376.

29، محفوظ كدوال، أروع قصائد أحمد مطر، (2007)، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر د ط، ص193.

30، هنري برغسون، الضّحك، ص93.